من الاستشراق التقليدي إلى العولمة

د. عبد النبي اصطيف

ثمة ما يشبه الإجماع بين دارسي الاستشراق ومؤرخيه في العالم الأنكلو - أمريكي على أن الإسهام الأمريكي الأكثر جدية وأهمية وخطورة في تطور هذا التقليد الثقافي الغربي، وبخاصة في جانبه الأكاديمي والبحثي، قد بدأ بالفعل مباشرة بعد الحرب العالمية الثانية، عندما وجدت الولايات المتحدة

* د. عبد النبي اصطيف: باحث من سورية، دكتوراه في الأدب العربي الحديث، عضو اتحاد الكتاب العرب، عضو جمعية النقد الأدبي. من مؤلفاته: «في النقد العربي الحديث».

نفسها في الموقع الذي كانت بريطانيا وفرنسا قد أخليتاه منذ عهد قريب» [١] على حد تعبير ادوارد سعيد. ولكن علاقة الولايات المتحدة الأمريكية بالشرق تعود بالتأكيد إلى تاريخ أسبق بكثير من منتصف القرن الحالي. ولربما لا يبالغ المرء عندما يشير إلى أن هذه العلاقة قد بدأت مع بداية حركة الاستيطان نفسها. فمنذ البداية «اعتبر المهاجرون إلى العالم الجديد أنفسهم شعباً مختاراً، واعتبروا أمريكة أرض الميعاد» [٢]. وقد اتخذ هذا المفهوم بتحقيق الاستقلال عن التاج البريطاني مظهراً واقعياً فعلياً، وغدت الدولة الجديدة مملكة الله الرمزية. (وقد يكون هذا من أسباب عمق العلاقة الاستراتيجية القائمة بين الولايات المتحدة الأمريكية ودولة إسرائيل. ففي منظور كل منهما لنفسها يبدو التماهي جدّ طبيعي بينهما. إذ كلتاهما استوطنت أرضاً كانت للآخرين بعد أن طهّرتها منهم بسبل مختلفة، خالقةً بذلك واقعاً جديداً ليس له من مسوّغ أخلاقي إلا النجاح والاستمرار والتبرير الذاتي الذي لا يشارك فيه الآخرون إلا من قبيل المغفرة للناجح) [٣]. ومع ذلك فقد استمر تواصل الكيان الجديد ثقافياً ومعرفياً، مع الغرب الأوربي، وبالتالي مع استشراقه الذي ازدهر منذ نهاية القرن الثامن عشر، والحقيقة أن الاستشراق الأوربي ظلّ باستمرار أرضيةً ومؤثراً مهمين جداً في علاقة الأمريكيين بالشرق، وربما ورثوا عن هذا الاستشراق مواقفهم العدائية تجاه الشرق والشرقيين [٤].

ولكن الأمريكيين من ناحية أخرى كانت لهم تجربتهم الخاصة المتميزة في الانشغال بالشرق، والتي أسهمت بدورها في صعود الاستشراق الأمريكي الذي رافق تنامي الحضور الأمريكي - هذا الحضور الشامل والعميق في مختلف وجوه الحياة الشرقية، سياسياً وعسكرياً واقتصادياً وثقافياً واجتماعياً. وإذا ما رغب المرء في الإشارة إلى بعض مكونات هذه التجربة الأمريكية فإنه يستطيع على سبيل الإجمال أن يذكر:

أ) الحرب التي خاضتها الولايات المتحدة الأمريكية مع دول الشمال الإفريقي واستمرت عدة عقود وما رافقها من تأثيرات في الاقتصاد الأمريكي، والسياسة الأمريكية، والتجارة الخارجية، والعلاقات الأمريكية

الأوربية، فضلاً عن قضية احتجاز البحارة والمسافرين الأمريكيين وبيعهم أوافتدائهم، وما حفزت من إنتاج أدبي أمريكي يرصد معاناة الأمريكيين في الأسر، والعلاقة بين الشرق من جانب والأمريكي من جانب آخر على المستويين الثقافي والاجتماعي [٥].

ب) العلاقات الدبلوماسية والتجارية التي أقامتها الولايات المتحدة منذ نهاية القرن الثامن عشر وسعت إلى تطويرها فيما بعد مع الإمبراطورية العثمانية وولاياتها المختلفة المطلة على البحر المتوسط بغرض حماية التجارة البحرية الأمريكية.

جـ) تنامي النشاط التجاري البحري مع دول المتوسط عامة، والشرقية منها خاصة، بعد أن مهدت نتيجة الحرب لحرية الملاحة أمام الأسطول التجاري الأمريكي.

د) زيارة أعداد كبيرة من الأمريكيين للشرق عامة والأراضي المقدسة في فلسطين بشكل خاص، بغرض الاستجمام، أو الاستشفاء، أو العمل، أو السياحة، أو الحج، أو البحث عن بواعث الإلهام، وغير ذلك، ومن خلال مجموعات سياحية تنطلق في رحلات بحرية من الساحل الشرقي للولايات المتحدة إلى الشرق الأوسط، وتمرّ بعدة محطات أوربية (من مثل إنكلترة، وإيطالية، واليونان، وتركية في قسمها الأوربي) قبل أن تحط رحالها في سواحل شرقي المتوسط [٦].

هـ) النشاط التبشيري الواسع النطاق في مختلف أقطار الشرق العربي وما رافقه من جهود تعليمية وصحية، وبخاصة في ساحل بلاد الشام، والأراضي المقدسة، تتوجت بإقامة جامعات أمريكية في لبنان، ومصر، وتركيا، إلى جانب إنشاء عدد من المؤسسات الثقافية والإعلامية، ومراكز البحوث المختلفة [٧].

و) الهجرات العربية المتلاحقة للولايات المتحدة بدءاً من مطلع النصف الثاني من القرن الماضي، واستمرارها حتى يومنا هذا [٨]، ومشاركة

الجالية العربية في عمليات إنتاج المعرفة المتصلة بالشرق وبخاصة في برامج الدراسات الشرق الأوسطية في مختلف الجامعات (فيليب حتي ودوره الريادي في جامعة برنستون مثال واضح مبكر على هذه المشاركة).

ز) الاستلهام الأدبي والفني للشرق والذي حفزته ترجمات **ألف ليلة وليلة** وغيرها من جهة [٩]، وكتابات الرحالة عن مشاهداتهم في الشرق من جهة ثانية، وزيارات الأدباء الأمريكيين للشرق أو ما يتصل به من مراكز ثقافية وحضارية (ويمكن للمرء أن يشير في هذا السياق إلى كل من هرمن ملفيل[١٠]، ومارك توين [١١]، وواشنطن إيرفنغ [١٢]، وإدغار ألن بو [١٣]، وناتانيل هاوثورن [١٤]، ووالدو إميرسون [١٥]، والتجاوزيين، بوصفهم أمثلة بارزة على استلهام الشرق وثقافته في الأدب الأمريكي).

ح) تنامي العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية مع مختلف الدول العربية وغيرها في منطقة الشرق الأوسط وبخاصة في الفترة التي تلت نهاية الحرب العالمية الثانية.

ط) انتقال أو هجرة العديد من كبار المستشرقين الأوربيين [١٦] إلى الولايات المتحدة الأمريكية، مما عزز فاعلية النشاط الاستشراقي الأمريكي وغذاه بدماء أوربية جديدة وخبيرة (غيب الانكليزي إلى هارفرد؛ وفون غرونباوم النمساوي إلى شيكاغو، وكاليفورنيا؛ وجوزيف شاخت الألماني إلى كولومبيا، وبيير كاكيا الاسكتلندي إلى كولومبيا، وروجر ألن الانكليزي إلى بنسيلفانيا، ومواطنه روجر أوين إلى هارفرد، وغيرهم».

وقد تمثل الإسهام الأمريكي في الدراسات الاستشراقية في تحول هذا التقليد الثقافي على يد المستشرقين الأمريكيين من فرع فقه لغوي «philolgical» جوهرياً، ومن إدراك عام غائم للشرق، إلى تخصص من تخصصات العلوم الاجتماعية [١٧]. وكان هذا التحول تدريجياً ومتنامياً غذاه الشعور بضرورة احتواء الشرق معرفياً حتى تَسهُل، فيما بعد، عملية احتوائه سياسياً واقتصادياً وثقافياً وعسكرياً، أو بعبارة أخرى، حتى يَسهُل على الولايات المتحدة الأمريكية ممارسة دورها الإمبريالي الذي أعدت نفسها

له في القرن التاسع عشر والعقود الأولى من هذا القرن، وبخاصة بعد أن أوشكت شمس الاستعمار القديم على الأفول.

وعلى خلاف المستشرق الأوربي التقليدي الذي كان يبدأ عادة بتعلم العديد من لغات الشرق، ومن ثم يستخدمها في دراسة نصوصه الدينية والدنيوية ليصل إلى مختلف الحقائق المتصلة بجوانب الحياة الشرقية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، نجد المستشرق الأمريكي يبدأ من معرفته المتخصصة بواحد من العلوم الاجتماعية أو العلوم الإنسانية (السياسة، الاقتصاد، الاجتماع، الانتروبولوجيا، التاريخ، الجغرافيا، وغيرها) ومن تدريبه النوعي في هذا العلم، ليطبق علمه ومعرفته على الشرق (أو أي مكان آخر من العالم الخارجي) محاولاً في أثناء ذلك أن يكتسب معرفة باللغة المعينة من أجل مراجعة النصوص الشرقية التي تمدّه بالمعرفة المحلية، أو بغرض الحصول على بعض المعطيات من خلال الدراسات الميدانية. وقد يبدو هذا غريباً بعض الشيء، ولكن دراسة اللغة في ترتيب الأشياء النابع من العلوم الاجتماعية تمثل مجرد أداة لغايات أسمى[١٨] هي فهم طبيعة الحياة الإنسانية المدروسة بمختلف وجوهها في مكان وزمان معينين. وقد أدى هذا بدوره إلى التركيز على مقولة «دراسات المنطقة» «Area Studies» أو ما يعرف أحياناً بـ «الدراسات الإقليمية» «Regional Studies» التي نجحت فيما يبدو، إلى حد واعد، في أن تجمع بين اللغة والأدب، والتاريخ والفلسفة، والجغرافية، والأنتروبوجيا، وعلم الاجتماع، وعلم السياسة، والاقتصاد، وعلم النفس، وتقاليد بحثية أخرى ذات صلة من أجل الحصول على تفسير شامل لمنطقة جغرافية محددة[١٩]، وعززت بذلك المقاربة المتداخلة المعارف «inter - disciplinary» في دراسة أي منطقة من مناطق العالم الخارجي.

وهكذا جرى تقسيم العالم المحيط بالولايات المتحدة الأمريكية إلى وحدات جغرافية تُتناول بالدرس والتحليل من مثل «الشرق الأوسط»،

و «الشرق الأقصى»، و «أمريكة اللاتينية»، و «أوربة الشرقية» و «جنوبي شرق أسية» وغيرها. وانعكس هذا التقسيم في إقامة مراكز البحوث وأقسام الجامعات الإقليمية المختصّة، مثلما انعكس في نشر الدوريات، وسلاسل الكتب، وتأسيس الجمعيات، والروابط المهنية، واستحداث الجوائز والمنح، وعقد المؤتمرات الدورية وغير ذلك من المظاهر التي شهدت ازدهاراً ملحوظاً في مختلف الولايات المتحدة الأمريكية منذ الخمسينات، وفي العقود التي تلتها. ويبدو أن هذا الازدهار الذي يكاد يشبه الطفرة كان أبرز عوامل تشجيع الأوربيين من دارسي الشرق على الاقتداء بالولايات المتحدة، واستلهام تجارها في إقامة مؤسسات مشابهة وفي محاولة تطويرها وفقاً للوظائف التي ينبغي أن تؤديها في المجتمعات الأوربية، وبخاصة في علاقاتها مع الشرق في مختلف الجوانب. وحسب المرء أن يشير هنا إلى **«رابطة شمال أمريكة لدراسات الشرق الأوسط»** "The Middle East Association of North America"، التي تأسست عام 1966، ونظيرتها البريطانية المعروفة بـ **«الجمعية البريطانية لدراسات الشرق الأوسط»** "British Society For Middle Eastern Studies"، التي أنشئت عام 1973، وإلى باقي الجمعيات والروابط الأوربية: الفرنسية المعروفة بـ **«الرابطة الفرنسية لدراسة العالمين العربي والإسلامي»** "I' association Francaise Pour I' etude du monde Arabe et Musulman" والسويسرية، والألمانية، والإسبانية، والنرويجية، وغيرها، والتي شكلت فيما بعد **«الرابطة الأوربية لدراسات الشرق الأوسط»** "European Association for Middle Eastern Studies"، التي ظهرت إلى النور عام 1990، ويرأسها الدكتور دريك هبوود Derek Hopwood، مدير مركز الشرق الأوسط، التابع لكلية سانت أنتوني، في جامعة أكسفورد.

ولكن عدوى «العولمة» "globalization" [٢٠] التي انتشرت انتشار النار في الهشيم في كل ما يتصل من تفكير في العلاقات الدولية منذ نهاية حرب الخليج الثانية التي أعلنت ولادة النظام العالمي الجديد [٢١]، باتت تهدد اليوم دراسات المنطقة التي توسم دارسو الشرق فيها الخير سبيلاً للخروج من أزمة الدراسات الشرق أوسطية خاصة، والدراسات الاستشراقية عامة - هذه الأزمة التي باتت واضحة وضوح الشمس بعدما أفصح لكل ذي عينين على يد ناقد الاستشراق الأكبر ادوارد سعيد منذ أن بدأ عام 1978 بنشر كتبه المتعلقة بتمثيل الآخر ودراسة ثقافته، والتي تشمل كلاً من «**الاستشراق**» (1978)، «**قضية فلسطين**» (1979)، «**تغطية الإسلام**» (1981)، «**لوم الضحايا**» (1988)، و«**الثقافة والإمبريالية**» (1993). و ادوارد سعيد الذي تحدث بشيء من تفاؤل عن محاولات واعدة لتجريد الدراسات الإقليمية أو دراسات المنطقة من استعماريتها [٢٢] (محاولات أنور عبد الملك، مجموعة هل Hull للدراسات الشرق أوسطية، مكسيم رودنسون، جاك بيرك، روجر أوين، إيف لاكوست، نعوم تشومسكي **ومشروع بحوث الشرق الأسط ومعلوماته - ميريب** - "The Middel East Research and Information Project") بات يخاف اليوم من هذه العولمة التي ليست في حقيقة الأمر غير نظام امتدت نخبة مالية صغيرة من خلاله بسلطانها ليشمل العالم كله، مضخمة أسعار البضائع والخدمات، ومعيدة توزيع الثروة من القطاعات ذات الدخل المنخفض (في العالم غير الغربي عادة) إلى القطاعات المرتفعة الدخل «وكيف له ألا يخاف وهو يرى انبثاق» نظام عبر - قومي Transnational جديد، لم يعد للدول حدود «وغدا العمل والدخل فيه محكومين من جانب المدارء العالميين، «وعاد الاستعمار إلى الظهور في خضوع الجنوب للشمال» [٢٣].

وادوارد سعيد ليس الوحيد في خوفه من هذا الخطر، فها هو روجر أوين Roger Owen، أحد أبرز نقاد الاستشراق منذ ما يقرب من ربع قرن،

يقرع ناقوس الخطر الذي يتهدد حقل الدراسات الإقليمية، ومن بينها منطقة الشرق الأوسط، بانتكاسة خطيرة، ربما لا يبرأ منها وعندما ينذر باحث متنور وخبير مثل روجر أوين، الذي يشغل اليوم منصب أستاذ تاريخ الشرق الأوسط، ومدير **مركز هارفرد لدراسات الشرق الأوسط**، في واحدة من أعرق الجامعات الأمريكية، ليس جديداً على ميدان التفكير في أوضاع الدراسات الاستشراقية، ولا على سبل البحث عن إصلاح ما أفسده الدهر الغشوم فيها، فقد عمل منذ أكثر من ربع قرن على التنبيه على ما تنطوي عليه من أهواء ومفارقات ومغالطات وإشكالات وأشكال شتى من القصور المنهجي والعلمي، وسعى من خلال كتبه الجادة المتميزة ومحاضراته الرصينة، ونداوته المعروفة في جامعة أكسفورد عامة، وفي مركز الشرق الأوسط خاصة، على بث روحه الناقدة في أجيال عديدة من دارسي الشرق الأوسط والعالم الإسلامي. كما جهد من خلال مراجعاته النقدية لمؤلفات المستشرقين التقليديين (غيب، على سبيل المثال)، وتحريره (بالاشتراك مع مجموعة هَلْ Hull) **لمجلة دراسات الشرق الأوسط** "Review of Middel East Studies" (1976 -) من أجل زعزعة سلطان الاستشراق القديم وإنزاله من عليائه أو برجه العاجي المتغطرس ووضعه في غربال النقد الممحص الكاشف عن الشرخ الذي يعتور منظوره والذي تحدث عنه سعيد في كتبه. وكثيراً ما تصدى روجر أوين لعتاة المستشرقين التقليديين الذين باتوا عبيداً لأهوائهم وبغضائهم للشرق والشرقيين من أمثال برنارد لويس [٢٤] وغيره، ووضعهم تحت مجهر نقده المنهجي المستلهم من تطورات العلوم الإنسانية والاجتماعية الحديثة، وأظهر بؤس نتاجهم البحثي وحدوده القاتلة. وعندما انتقل إلى جامعة هارفرد قبل ثلاث سنوات، حمل معه رؤيته الناقدة إلى معقله الجديد، متابعاً فيه رسالته النبيلة في ضرورة توظيف المعرفة في خدمة الإنسان وعلاقاته ومستقبله.

وربما يحسن بالمرء أن يذكر، في هذا السياق، أن روجر أوين كان واحداً من أبرز مشجعي ادوارد سعيد في مشروعه عن الاستشراق وتمثيل الآخر ودراسة ثقافته. وهو ما أقرّ به سعيد نفسه في مقدمة كتابه **الاستشراق**، عندما خصّه بالتقدير والعرفان بالجميل مع إبراهيم وجانيت أبولغد ونعوم تشومسكي من الذين تابعوا مشروعه من بدايته إلى اكتماله[٢٥]. كما أشار سعيد إلى عمله في خاتمة كتابه، وعدّ كتاباته في التاريخ الاقتصادي للشرق الأوسط من المصوِّبات القيمة الناجعة في الدراسات الشرق أوسطية، وبخاصة في استحضارها للعلوم الإنسانية المعاصرة، وامتحانها الذاتي المستمر لمناهجها، واستجابتها الحساسة لمادتها المدروسة[٢٦]، في مقاومتها للشرق ومشكلاته.

يشير روجر أوين في مقالته التي نشرت صحيفة **الحياة** (لندن) ترجمتها تحت عنوان «عولمة الدراسات الإقليمية في أميركا: أسلوب جديد يتناول العالم على أساس إقليمي [*]» [٢٧]، بما فيها جامعة هارفرد، تنوء اليوم بالضغط الهائل الذي يستهدف إجبارها على إعادة تنظيم الطرق التي تدرس فيها العالم الخارجي. فالعولمة التي تعني «عزو أهمية أكبر للتيارات الدولية منها للتيارات الإقليمية» هي الكلمة الرائجة اليوم في إنشاء صانعي السياسة الأمريكية في واشنطن الذين تغير منظورهم مؤخراً بعد أن غدت الولايات المتحدة القوة العظمى الوحيدة، الآمرة الناهية، في العالم. ومن الضروري أن يمتثل الآخرون لهذا التغير ويستجيبوا له، وذلك بالتفكير بـ «الآخر» "the other"، والنظر إليه، ودراسة شؤونه على نحو يعكس هذا التغيير في المنظور، وينسجم وتصورات هؤلاء الصانعين عن عالم ما وراء الحدود الأمريكية. وهكذا يبدأ التنافس في الامتثال لإرضاء واشنطن. وسرعان ما يجد المرء الجميع يتحدثون بصوت واحد تقريباً: ابتداءً من القائمين على السياسة الخارجية في العاصمة الأمريكية، وانتهاءً برؤساء أقسام الدراسات الإقليمية، ومروراً برؤساء

(*) العنوان الفرعي من إضافة «الحياة».

الوكالات الاتحادية، والمؤسسات الخاصة الممولة للأبحاث، ورؤساء الجامعات، ومدراء مراكز الأبحاث الخاصة والعامة والحكومية، وكل من له علاقة بدراسة العالم الخارجي.

وهكذا رأينا كنيث برويت Kenneth Prewitt، الرئيس الجديد «لمجلس نيويورك لأبحاث العلوم الاجتماعية» "New York Social Science Research Council" وهو المجلس الذي كان حتى السنة الماضية (1996) ينظم برامجه ومنحه على أساس إقليمي من خلال مجالس فرعية يعنى كل منها بمنطقة محددة من العالم يحاج أن المسوغ الفكري لمعرفة المناطق لم يعد يقتصر على تمكين مجتمع معين من فهم المجتمع الآخر، أو المجتمعات الأخرى، وهو لهذا يدعو إلى إعادة ترسيم حدود الدراسات الدولية. ويكتب شارحاً مفهومه لها:

«إن المقصود بإعادة ترسيم حدود الدراسات الدولية هو إعادة تصور أشكال المعرفة الاجتماعية التي تنبثق عن دراسة المكان. فالمسوغ الفكري لمعرفة المنطقة "area Knowledge" لم يعد مهمة مساعدة مجتمع ما (الولايات المتحدة) على فهم المجتمع «الآخر الأجنبي» "Foreign other" وحسب. إنه الآن المهمة الأدق في فرز الطرق التي يتداخل فيها العالمي والمحلي في عالم متغير من المختلفات.

وهذه المهمة تتطلب معرفة المنطقة، ولكنها تتطلب أيضاً المقاربة عبر المناطق. إنها تتطلب أدوات وتقنيات تساعد الباحث على الربط ما بين التجربة والسياقات الأوسع، ومعالجة التجربة المحلية بوصفها الأساس من أجل إنشاء النماذج models، وبناء الفرضيات، واختبار النظرية [٢٨].

وبعبارة أخرى إن معرفة المنطقة لم تعد كافية، ولا بد من تطويرها على نحو يستجيب للتغيرات التي يشهدها عالمنا المعاصر. ذلك أن تحرر الباحثين من المنظور الثنائي القطب للحرب الباردة، وازدياد وعيهم بانتقال

الناس والأفكار والمعلومات والمؤسسات والتقنيات والبضائع عبر المناطق المختلفة، وعدم كفاية الأفكار التقليدية المرتبطة بدراسات المنطقة، يحتم البحث عن مفاهيم فكرية جديدة، مثلما يتطلب طرقاً جديدة لتنظيم البحث العلمي عن العالم الخارجي. وهكذا وجد **«المجلس الأمريكي للجمعيات العلمية»** "America Council of Learned Societies" و**«مجلس نيويورك لأبحاث العلوم الاجتماعية»** أو "NYSCRC" أن المفيد تصورياً التمييز ما بين دراسات المنطقة التقليدية من جهة، والمعرفة القائمة على المنطقة - "Area Based Knowledge" (٢٩) وقد تبين للمجلسين أن دراسات المنطقة التقليدية قد اتخذت من الأقاليم Regions أو المناطق بكلياتها الوحدة الرئيسية لتحليلاتها. وأن يكون المرء دارساً للمنطقة معناه:

«المشاركة في مشروع يسعى إلى معرفة كل ما يمكن معرفته على نحو معقول عن منطقة من مناطق العالم - عن لغاتها، وتاريخها، وثقافاتها، وسياساتها، وأديانها» (٢٩).

أي أن دراسات المنطقة التقليدية هي أساساً **«معرفة عن المنطقة»**.

وهي في هذا تختلف عن «المعرفة القائمة على المنطقة» التي تبدأ بـ:

«المعرفة عن منطقة ما، ولكنها بعدئذ تُطبِّق تلك المعرفة على عمليات، واتجاهات، وظواهر تتجاوز أي منطقة معطاة» (٣٠).

والمجلسان يؤسسان هذا المفهوم على مقدمة عمل فحواها أن المناطق - ابتداءً من القرى البعيدة وانتهاءً بالقارات بكاملها - أسرى عمليات تربطها بالأحداث.

«وأنها، وعلى الرغم من كونها متباعدة جغرافياً، جدُّ قريبة بعضها من بعض ثقافياً، أو اقتصادياً، أو استراتيجياً، أو بيئياً. وتعلم المزيد والمزيد عن القيم أو الشروط الاجتماعية في منطقة محددة، يعني بعد ئذ تعلّم المزيد والمزيد عن كيفية توضّع تلك المنطقة ضمن أحداث تمضي إلى ما وراء حدودها الجغرافية، ولكنها ليست بالتالي خارج ثقافتها، أو اقتصادها، أو بيئتها» (٣١).

«إننا نستعمل مصطلح «المعرفة القائمة على المنطقة» لنشير إلى مشروع بحثي يفسر ويشرح الطرق التي يُحدَّد فيها ما هو عالمي، وما هو محلي، كل منهما الآخر» (٣١).

هذا هو مربط الفرس كما يقولون في المفهوم الجديد كما يشرحه أهم مجلسين معنيين بدراسة العالم الخارجي. ولكن هل ثمة أي جديد فيه؟

يعلق روجر أوين على هذا الطرح بأنه بدهية مكرورة. فالتجربة الاستعمارية مثلاً لا يمكن فهمها إلا من خلال دراسة خليطها المعقد، وتبين العلاقة الشائكة بين القوى المحلية والقوى الدولية (٣٢)، وهو ما يفعله جلُّ دارسي مناطق العالم المختلفة، سواء أكانوا من سكان هذه المناطق أم من خارجها، وسواء أكانوا ينتمون إلى العالم المستعمَر (بفتح الميم الثانية) أو إلى العالم المستعمِر (بكسرها) ولكن التركيز المسرف على العمليات والتيارات والظواهر الأكبر التي تتجاوز المناطق المنفصلة هو ما يبعث على القلق، ويثير بدوره جملة من التساؤلات.

فهل الهدف من دراسة منطقة من المناطق فهم الجوانب المختلفة المتصلة بها من أجل النهوض بأوضاعها وأوضاع سكانها، ومواجهة مشكلاتها وحلها، والمساعدة على تنمية علاقات سليمة بينها وبين المناطق الأخرى في العالم، أم أن الهدف هو اتخاذ هذا الفهم مجرد متكأ لدراسة العمليات والتيارات الكبرى التي تنتظمها مع غيرها من المناطق؟

وكذلك من الذي يحدد ما هو محلي لا يتجاوز في أهميته منطقته الخاصة به، وما هو محلي ولكنه يتجاوز في أهميته أو دلالته هذه المنطقة، ويمكن أن يشكّل مع غيره تياراً أكبر أو ظاهرة أكبر ذات صلة بمناطق العالم الأخرى؟

وهل دراسة المحلي هي مجرد خطوة أولى، أو مجرد وسيلة، من أجل دراسة العالمي؟

وفوق هذا وذاك وذلك ما مقدار الأهمية التي يمكن أن يعزوها الباحث لمنظور الداخليين ورؤيتهم لما هو محلي، بالقياس إلى الأهمية المعزوّة لمنظور

الخارجيين ورؤيتهم لهذا المحلي؟ وبعدها ما المحلي؟ وما العالمي؟ ومن وجهة نظر من؟ هل العالمي ما يراه سكان منطقة ما عالمياً، أم أن العالمي هو ما يراه سكان المناطق الأخرى، أو صانعو القرار السياسي في منطقة أخرى، وبالتحديد من يقيمون في مراكز الثقل الاقتصادي والعسكري والسياسي في الغرب؟ إن الخوف كل الخوف يكمن في هيمنة العالمي على المحلي. وأخشى ما يمكن أن يخشاه المرء أن يكون هذا العالمي مجرد وصف ملطف براق جذاب لشيء أشدّ خطراً على المدى البعيد هو القوى التي تقف وراء ظاهرة العولمة والتي تفيد منها. تقول الناقدة والمثقفة الهندية الأصل، وأستاذة العلوم الإنسانية في جامعة كولومبيا غاياتاري شاكارافورتي سبيفاك:

«العولمة Globalization في الواقع كلمة تبرئة alibi لتغطية الأمركة Americaization. وإذا ما فُهِمَتْ أمريكة على أنها القوة المهيمنة في ثلاث وكالات عبر قومية رئيسية (صندوق النقد الدولي، والبنك العالمي، وغات، التي حلّت محلّها الآن منظمة التجارة العالمية)، وإذا ما سميتها بالعولمة، فإنها تصبح، ولسبب وجيه شيئاً حسناً» (٣٣).

وأخيراً ماذا عن صلة المحلي العالمي؟ وما هي صور التفاعل - إن كان ثمة بالفعل تفكير في وجود تفاعل ما - بينهما؟ يبدو أن الأمر لن يتجاوز النظر إلى المحلي على أنه مجرد تابع ينبغي أن يتكيف مع ما هو عالمي في السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة والتربية والفن وجميع وجوه الحياة، وأن المحلي لن يكون في نهاية المطاف غير طرف منفعل في هذه العلاقة، وأن الطرف الفاعل لن يكون غير القوة العظمى الوحيدة، وهي الولايات المتحدة الأمريكية.

مهما كان الأمر، فإن عدوى العولمة ماضية في انتشارها، وها هو رئيس جامعة هارفرد العريقة نيل رودنستاين Neil L.Rudenstine يعزف تنويعته من المقام نفسه ويتحدث في معرض تسويقه للأهمية التي يسندها إلى مجمّع الجامعة الجديد للدراسات الدولية والذي تخطط

جامعة هارفرد لإقامته: «تَعِدُ هذه السنة بأن تكون سنة مهمة على نحو خاص بالنسبة للدراسات الدولية في هارفرد. فالخطط في مرحلة التشكل من أجل مجمّع جديد - مؤسس ضمن كلية الآداب والعلوم، ولكنه مرتبط من الناحية الفكرية بأجزاء أخرى من الجامعة - سوف يساعد على إيجاد صلات أوثق مابين مختلف المراكز والبرامج المركزة على الشؤون الدولية.

إن العولمة "Globalization" مصطلح يستعمل بإسراف هذه الأيام. ومع ذلك فإن من الواضح أن للعديد من القضايا الكبرى في الحياة الحديثة أبعاداً عبر إقليمية transregional. وسواء أكان الموضوع يتعلق بانبثاق العديد من الديمقراطيات الجديدة وهشاشتها، أم بالتفاعل بين الحركات الدينية المنبعثة وبين السياسة في أجزاء مختلفة من العالم، أم بالتوتر بين حماية البيئة وبين التنمية الاقتصادية، أم بسيادة أشكال من الصراع متصلة بالعرقية أو الجنس race في العديد من المجتمعات، فإن لدينا الكثير مما نتعلمه من الدراسات المقارنة التي تستطيع أن تساعدنا على رؤية أنساق عبر الحدود الأكاديمية والجغرافية التقليدية. وإذ يمثل هذا في الذهن، فإننا ننتظر إيجاد مجمع من التسهيلات الجديدة والمجدَّدة سوف تصل ما بين العديد من مراكز هارفرد القائمة وبرامج الدراسات الدولية. لقد خطت الجامعة في أثناء السنوات الثلاث الماضية خطوات واسعة ومعتبرة على جبهات متعددة: ومن ضمن أشياء أخرى هناك تأسيس مركز ديفيد روكفلر للدراسات الأمريكية اللاتينية، ووقف مركز كاثرين وشبلي كلَوم ديفيز للدراسات الروسية، وتوسيع معهد كوريا، وإيجاد كل من مركز رينالد، ف، لويس للقانون الدولي، ومركز للدراسات القضائية الإسلامية (في مدرسة الحقوق)، وآخرها عهداً بدأنا بالسعي من أجل مصادر كبيرة لإيجاد مركز لآسية.

وإذ نمضي في تعزيز هذه الأجزاء من الجامعة والأجزاء الأخرى المركّزة بشكل رئيسي على أمم أو أقاليم معينة، فإن لدينا الفرصة كذلك لنصل ما بينها

على نحو أكبر، وبطرق ستمكن أعضاء الهيئة التدريسية والطلاب من الاشتراك في، ودمج، استبصارات مستمدة من أقاليم وميادين دراسة مختلفة. إن التخطيطات المادية للمجمع الدولي في أطوارها الأولى. وكذلك فإننا ننوي تأسيس مقر جديد لقسم السياسة أو الحكومة، ومجهودات جمع التبرعات ماضية على قدم وساق. إن الأمل هو إيجاد مركز ملء البصر بامتياز للنشاطات من أجل الدراسات الدولية في هارفرد - مركز سيحفز على تفاعل أكبر، ومشروعات مشتركة أكثر، ومدخل أكثر تركيزاً للعديد من المشكلات ذات الاهتمام الحيوي المعاصر»[٣٤].

إن رؤية كهذه، مشفوعة بتخطيط واسع النطاق لإعادة تشكيل الدراسات الأولية في واحدة من أعرق الجامعات الأمريكية، والعالمية، ومدعومة بتمويل ضخم، تبعث لا محالة على القلق. وروجر أوين - بوصفه مديراً لوحدة جامعة معنية بدراسة منطقة محددة تحديداً واضحاً هي منطقة الشرق الأوسط - يشير إلى بعض عقابيلها، فيخص بالذكر منها ثلاث هي:

أ - تقلل هذه الرؤية عبر الإقليمية "transregional" أو العالمية "Global" من أهمية المعرفة الخاصة بمنطقة معينة - هذه المعرفة القائمة عن دراسة ثقافتها، ولغتها وتاريخها[٣٥]، وتراثها. بل إنها تشكك حتى في وثاقة صلتها بأية دراسة تتجاوزها إلى مناطق أخرى من العالم. ذلك أن المهم في التعامل مع هذه المنطقة التنبه فقط إلى تلك الأبعاد عبر الإقليمية، أو العالمية؛ أما ما سواها من جوانب وقضايا وأمور تتصل بها وحدها، أو تميزها وتحدّد خصائصها، فإنها لا ترقى في أولويتها إلى مستوى اهتمام المُعَوْلَم.

ب- تسعى هذه الرؤية إلى الانتقال من التوازن بين المحلي والعالمي إلى الإلحاح على تلك العلوم الاجتماعية (من مثل علوم الاقتصاد والاجتماع والسياسة) «حيث تدرس التطوارت الدولية باللغات الإنكليزية مستخدمة معطيات مستمدة من جداول إحصائية أكثر منها من مصادر اللغة المحلية[٣٥]. وبعبارة أخرى إن مصادر اللغة المحلية والقائمة على دراسات مباشرة وميدانية لواقع منطقة معينة لم تعد مهمة أهمية ما تقدمه المصادر المتوفرة باللغة الإنكليزية أو الجداول الإحصائية التي تقدمها المنظمات الدولية. وبالتالي فإن أي دراسة ناجمة عن معطيات عالمية لن تعكس في نهاية المطاف إلا وجهة النظر العالمية، ولن تصب في النهاية إلا في مصلحة القوى المهيمنة على المشهد الدولي. فإذا ما كانت مصادر صندوق النقد الدولي، أو البنك العالمي، أو منظمة التجارة العالمية تقول شيئاً ما محدداً عن منطقة ما، وتقول مصادر هذه المنطقة المدونة بلغتها أو بلغاتها المحلية شيئاً آخر، فإن المعول عليه هنا هو ما يصدر عن الدولي وليس ما يصدر عن المحلي. ولما كانت مصادر المعرفة الإنسانية تحدد إلى درجة بعيدة المعرفة الناجمة عنها، فإننا لن نتصور مدى قرب المعرفة التي يخرج بها أنصار العولمة من الدراسين من واقع حال المنطقة التي يزعمون أنهم يدرسونها، وهكذا وبدل انفتاح المعرفة الإنسانية منهجياً على مصادر المعرفة المباشرة والأصلية، تنفتح على المصادر الثانوية وغير المباشرة أو المراجع. وبالطبع فإن معرفة كهذه لن تؤدي بأي حال من الأحوال إلى خدمة سكان المنطقة المدروسة، والرقي بمستويات حياتهم المختلفة بمقدار خدمتها للقوى المهيمنة على المشهد عبر الإقليمي، أو العالمي.

ج- تطرح هذه الرؤية أخيراً جدول أعمال بحثي مُعَوْلَم[٣٥]، وقائم على رؤية أمريكية (*) تهيمن على المنظور العالمي[٣٦]. وبعبارة أخرى تنحدر المعرفة الناجمة عن داسة محكومة بهذه الرؤية إلى درك المركزية الأمريكية، وتستبعد كل الرؤى الأخرى، وتتحول في نهاية المطاف إلى رؤية تشبه خيول السباق التي لا ترى غير مسارها الماضية فيه، ولا تسعى إلا إلى بلوغ هدف معين محدد مسبقاً تضعه نصب أعينها. وفي ذلك تضييق خطير لأفق المعرفة الإنسانية، وانكفاء يتسم بالمفارقة في رؤية تزعم لنفسها منظوراً عالمياً في الوقت نفسه الذي تحدد منطلقاً إقليمياً مركزياً لها هو منظور القوة العظمى الوحيدة المهيمنة على مقدرات العالم وهي الولايات المتحدة الأمريكية.

* * *

إن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو ما السبيل إلى مواجهة توجه كهذا في دراسات الشرق الأوسط، وهل يكتفى بالإشارة إلى عقابيله، وهل يستغنى بتوضيح خطره عن القيام بأي عمل إيجابي لمواجهته؟

لِنَرَ أولاً ماذا يقترحه خارجي متنوّر ملتزم بقضية وضع المعرفة في خدمة الإنسان، وناقد عريق للاستشراق التقليدي.

يقترح روجر أوين ثلاثة أمور تجب الإشارة إليها في مواجهة الرؤية العالمية:

- أولها تأكيد أهمية المعرفة الخاصة القائمة على معطيات مستمدة من مقاربة مباشرة لواقع المنطقة المدروسة؛

(*) - إذا ما نحى المرء جانباً التعنت والغطرسة والرؤية العنصرية الإسرائيلية (وهي أمور ناجمة في جزء كبير منها عن الدعم الأمريكي المطلق لها) يجد أن العقبة الرئيسية في طريق تحقيق السلام العادل والشامل في منطقة الشرق الأوسط هي التصور الأمريكي (الذي تخالف فيه الولايات المتحدة سائر العالم بما فيه حلفاءها في أوربة الغربية واليابان) لعملية السلام - هذا التصور الذي يتجاهل كل معطيات التاريخ والواقع والتطلعات الإنسانية للأمة العربية بما فيها الشعب العربي الفلسطيني المغلوب على أمره.

– وثانيها تأكيد أهمية التاريخ ودراسته في تناول أية منطقة، لأن في إغفاله تخلياً غير مفهوم، بل وربما كان تخلياً غبّياً عن كنز لا يمكن تقدير غناه من الخبرة الإنسانية؛

– وثالثها تأكيد التعاون بين الباحثين الداخليين المنحدرين من المنطقة المدروسة والباحثين الخارجيين المعنيين لها، وذلك بغرض طرح برنامج بديل «يلائم على نحو أكثر قرباً الشروط الشرق - أوسطية، ويتلاءم مع كيفية رؤية الشرق أوسطيين أنفسهم لصلاتهم بالقوى العالمية» (٣٦).

وهو لهذا يفكر في عقد مؤتمر يتداول المشاركون فيه كل ما يتصل بقضية عولمة دراسات الشرق الأوسط ويبلورون فيه البديل الممكن للتوجه العالمي / الأمريكي في دراسة هذه المنطقة، وهو مقترح ينبغي أن يظفر بالدعم والتشجيع والتعاون من قبل جميع المعنيين بدراسة الشرق الأوسط وحاضره ومستقبله. وأهم من ذلك كله ألا يُكتفى بالقول، بل ينبغي أن يتخذ العمل وحده سبيلاً ناجعاً للمواجهة. والغد قريب لمن يعمل بإخلاص من أجله، ولا يكتفي بالترقب أو المراقبة.

* * *

ولكن ماذا على الداخليين أن يفعلوه لمواجهة هذا التوجه مواجهة إيجابية يرضون عن حصيلتها؟

حواشي

(١) ادوارد سعيد، **الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء**، نقله إلى العربية كمال أبو ديب (مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1981)، الطبعة العربية الثانية، 1984، ص (290).

(٢) أنظر Fuad Sha' ban, **Islam and Arabs in Early American Thought: The Roots Orientalism in America** (the Acron Press, Durham, North Carolina 1991), P.viii

والفصل السابع منه، وعنوانه "The Vision of Zion" ص ص (141-176).

(٣) ربما كان من الشائق أن نذكر في هذا السياق أن ادوارد سعيد قد كتب مؤخراً:

«إن النقطة الرئيسية في الإيديولوجية الأمريكية هي أن الأمير كيين شعب «جديد» أي أنهم أفراد جاءوا بالضبط للتخلي عن هوياتهم الأصلية والحصول على هوية جديدة. وكانت أسطورة الهجرة إلى أمريكا قامت على أن كل أمريكي جديد هو مثل آدم وحواء، أي أنه شخص تخلى عن ماضيه لكي يشارك في ما تقدمه «بلاد الله» أو «إسرائيل الجديدة» أي أميركا، لمواطنيها من ثروات وفرص لا محدودة».

وانظر ادوارد سعيد، «قضية مادلين أولبرايت»،

الحياة (لندن)، العدد 12435، الخميس 6 آذار 1997، الموافق 27 شوال 1417ص (17).

(٤) انظر، ادوارد سعيد، الاستشراق: . . . ، ص(290).

(٥) انظر

Robert J. Allison

The Crescent Obscured: the United States and the Muslim World 1776 - 1815 (Oxford University Press, New York -Oxford, 1995).

والفصل الرابع من كتاب شعبان المذكور آنفاً والمعنون بـ "The Shores of Tripoli" ص ص (65-82).

(٦) انظر الفصل السادس من كتاب شعبان المذكور سابقاً والمعنون بـ

"East ward Ho, American Travellers in the Muslim World"

ص ص (115-140).

وكذلك ما كتبه مروان عبيدات حول الرحالة الأمريكيين في الشرق في القرن التاسع عشر في:

Marwan M. Obeidat,

"Lured by the Exotic Levant: The Muslim East to the American Traveler of the Nineteen the Century", **Islamic Quanterly**, Vol. XXXI, no. 3, Third Quarter, 1987, PP. 167-93.

و د. مروان عبيدات

، «جون روس براون: نموذج أميركي من القرن التاسع عشر لأدب الرحلات الاستشراقي»،

الفكر العربي (بيروت)، العدد (51)، السنة التاسعة، ص ص (199-205).

وكتاب Lester I. Vogel

To See A Promised Land: Americans and the Holy Land in the Nineteenth Centuey (The Pannsylvania State University Press, Pennsylvnia 1993.)

(٧) انظر الفصل الخامس من كتاب شعبان المذكور سابقاً، وعنوانه :

"The Great Comission" ص ص 83-114.

وكذلك : Abdele L. Younis

The Coming of the Arabic - Speaking People To the United States, Edited by Philip M.Kayal (Center for Migration Stidies New York, 1995).

وبخاصة الفصلين الثاني والثالث ص ص (37-49) و (0-78)

(٨) انظر كتاب ع، يونس المذكور آنفاً، وبخاصة البيبليوغرافية الممتازة التي ألحقها محرر الكتاب فيليب كيال بالكتاب تحت عنوان :

"ABibliographic Guide To Arab - American Studies"

الصفحات (305-338)

وكذلك باربرة أسود Barbara C.Aswad,

"Arab Americans, Those who Followed", **MESA Bulletin**, Vol. 27, no.1, July, 1993, pp.5-22.

(٩) انظر الفصل الثامن من كتاب فؤاد شعبان المذكور سابقاً، وعنوانه

"The Dream of Baghdad" ص ص (177-194)

(١٠) انظر كتابي ميلفيل :

a) Clared: APoem and Pilgrimage in the Holy Land.

b) Journal of a Visit to Europe the Levant .

وكتابه المترجم «**موبي ديك**» من جانب الدكتور إحسان عباس، ط1، (دار الكتاب العربي، بيروت، 1965) (ط2) (دار ناصر، بيروت، 1980). وانظر أيضاً :

د. إحسان عباس، «الأثر الإسلامي في قصة موبي ديك» في كتابه :

من الذي سرق النار : **خطرات في النقد والأدب**، جمعتها وقدمت لها الدكتورة وداد القاضي (المؤسسة العامة للدراسات والنشر، بيروت، 1980)، ص ص (443-453).

(١١) انظر كتابه : "Innocents Abroad" الذي يعود إلى عام 1869

(١٢) انظر Marwan M. Obeidat

"Washington Irving and Muslim Spain" International **Journal of Islamic and Arbic Studies,**

4 (1), 1987, pp.27-44

(١٣) انظر على سبيل المثال قصيدتيه «الأعراف» و «إسرافيل» اللتين يتخذ لهما عنوانين إسلاميين عربيين.

(١٤) انظر Luther S. Luedtke

Nathaniel Hawthorn and the Romance of the Orient

(Indiana Unversity Press, Bloomington, 1989).

Marwan M. Obeidat,

"Ralph Waldo Emerson and the Muslim Orient",

The Muslim World, vol. LXXVII,

no. 2,1988, pp.123-145.

(١٦) انظر ادوارد سعيد، **الاستشراق**. . .، ص295؛ وكذلك: د. مازن بن صلاح مطبقاني، **الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي: دراسة تطبيقية على كتابات برنارد لويس**

(مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1995)، ص(52).

(١٧) انظر ادوارد سعيد، **الاستشراق**. . .، ص 290.

(١٨) ادوارد سعيد، **المرجع السابق**، ص 291.

(١٩) انظر،

Kenneth Prewitt,

"Presidental Itens"

Items: Social Science Research Council

(New York), Vol. 50, nol

وانظر مقالة ليونارد بندر

Leonard Binder

"Area Studies: ACritical Reassessment:,in

The Study of the Middle East: Research

and scholarship in the Humanities and the Social Sciences,

Edited by Leonard Binder,

(John Wiley and Sons, New York, 1976), pp.1-28.

(٢٠) من أجل الاطلاع على تاريخ هذا المفهوم وأهميته ينظر:

Malcolm Waters, **Globalization,**

(Routledge, London, 1995).

(٢١) انظر

Noam Chomsky,

:The US in the Gulf Crisis", in

The Gulf War and the New World Order,

Edited by H. Bresheeth and N. Yuval - Davis

(Zed Bools, London, 1991) pp. 26-8;

وانظر كذلك

H. Bresheeth,

"The New World Order"

في **المرجع السابق**، ص ص (243 - 256).

(٢٢) ادوارد سعيد، **الاستشراق..** ، ص 322.

(٢٣) Edward W. Said,

Orientalism: Western Conceptions of the Orient,

With a new afterward (Penguin Bools, Middlesex, 1995), pp. 350-1

(٢٤) انظر: - روجير أوين، «رسالة إلى التحرير» في **الاستشراق بين دعاته ومعارضيه**، ترجمة وإعداد هاشم صالح، (دار الساقي، لندن وبيروت، 1994)، ص ص (155-156)؛ و «بيرنارد لويس يردّ»، في المرجع نفسه، ص ص (156-158).

(٢٥) انظر ادوارد سعيد؛ **الاستشراق**.....، ص «تنويهات».

(٢٦) انظر **المرجع السابق**، ص (323).

(٢٧) انظر الحياة (لندن)، العدد (12320)، الاثنين 18تشرين الثاني / نوفمبر 1996م، الموافق لـ 7رجب 1417 هـ، ص (18).

(٢٨) انظر

Kenneth Prewitt

"Presidential Items" in **Items**, Vol. 50,

no. 2/3, june/ September 1996, pp.32-3.

(٢٩) **المرجع نفسه**، ص (31).

(٣٠) **المرجع نفسه**، ص ص (31-32).

(٣١) **المرجع نفسه**، ص (32).

(٣٢) روجر أوين، «عولمة الدراسات الإقليمية في أمريكا..» الحياة (لندن)، العدد (12320)، الاثنين 18 تشرين الثاني/ نوفمبر 1996، الموافق لـ 7 رجب 1417 هـ ص (18).

(٣٣) انظر مقابلة بيتر أوزبون لها في:

A Critical Sense: Interviews with Intellectuals,

Edited by Peter Osborne

(Routledge, London, 1996), pp. 163-77.

وبخاصة الصفحة (166).

(٢٤) انظر:

Neil L. Rudenstine,

"ALetter From the President"

Harvard University Gazette,

October 17, 1996, p.5

(٣٥) روجر أوين، **المرجع السابق**، ص (18).

(٣٦) لمزيد من الاطلاع على هذه النقطة ينصح بالعودة إلى:

عبد الوهاب المسيري، «في الأمركة وتوابعها: أمركة العالم وعولمة أمريكا» **الحياة**، العدد (12999)، الاثنين 28 تشرين الأول، الموافق 16 جمادى الآخرة 1417هـ، ص 18.

(٣٧) روجر أوين، **المرجع السابق**، ص (18).

* * *